نظام الري في سورية

(تابع ما قبلهُ)

(٢) الليطاني

يجري هذا النهر في سهل البقاع الخصب بين سلسلتي جبال لبنان ويشغل مجراهُ منفصلهما ويبلغ طول واديهِ ١٠٠ كيلو متر ومساحتهُ ٣٠٠٠٠٠٠ فدان مشهورة بريفها فينمو فيها الحبوب والكرم

ومنزعة ماء النهر قليلة مثل تصرفهِ ابتداء من منبعهِ عند بعلبك الى معلقة زحلة ولا تزيد الاّ بعد ان يصب فيهِ نهير البردوني الذي يستمد ماءهُ من ثلوج ستين مارًّا بمدينتي زحلة والمعلقة فتشربان منهُ وتستخدمان ماءهُ لادارة الطواحين المنشأة على شاطئيهِ ويمكن سحب كمية عظيمة من ماء هذا النهير اذا استعين على رفعها بشلالاتهِ او بانشاء قناطر عليهِ حيث يسح انحدار الماء بذلك

وبعد ان يغادر الليطاني المعلقة يصب فيهِ غدران صغيرة عديدة ثانوية الاهمية تأتيهِ اما من جبال لبنان او من الجبل الشرقي . ولما كان نهر الليطاني يشغل مفصل الجبلين كما تقدم فليس من المستغرب ان تحول مجراهُ مع قلة الماء فيهِ الى مستنقعات في بضعة اماكن ولقد عانت قرية عميق من جراء ذلك كثيراً ثم ان ذلك الماء لم يستخدم قط الاستخدام الواجب لري تلك المناطق

تخصص اخفض الارض عادة في جميع مشروعات الري لانشاء المعارف التي تتلقى الماء الزائد عن الحاجة او ما يرشح من الاراضي المروية واما الترع فتحفر في النجود فينتج من ذلك ان احكم الخطط لري سهل البقاع هي التي تجمع فيها مياه الجداول المنحدرة من سفوح كل من الجبلين في قناتين تحفران عند حضيضهما ويستخدم نهر الليطاني نفسهُ كمصرف رئيسي للماء الهابط من هاتين الترعتين اللتين تستطيعان وقتئذٍ سقيا الارض سيحاً

ويحتفظ الوادي جنوب عميق بعرضهِ ولكن انحدارهُ الطولي يشتدُّ وتختفي منهُ المستنقعات اذ تعظم سرعة النهر حتى يبلغ البحر وقبل ان يصب فيهِ وعلى بعد

٢٥ كيلو متراً منهُ يختلف اتجاههُ فجأة من الجنوب الى الغرب ويسمى بعد ذلك نهر القاسمية ويمكن ان يروي الساحل الضيق المحدود بالمصب ومدينة صور من جهة ومدينة صيداء من الجهة الاخرى قبذا تزكو بساتين هذه المدينة المشهورة برتقالها الشهي وتنمو تجارتها وتزرع ارض تنوف مساحتها على ٣٠٠٠ فدان مصري. ومن المستطاع الانتفاع بالشلالات الموجودة في نهر القاسمية لادارة الطواحين والموطورات الكهربائية لاضاءة مدينتي صور وصيداء وانماء صناعاتهما المحلية

(٣) نهر الساحل

يشتمل الساحل السوري من صور الى اسكندرونة على سهل ضيق ريّان تزرع فيهِ الفواكه والخضر ويحدهُ البحر من ناحية وتشرف عليهِ جبال لبنان والنصيرية من الاخرى وتشق تلك الجبال شعاب عديدة تجري فيها غدران وجداول سرعان ما تأخذ ماءها من قنها الشديدة الانحدار حتى تلقي بهِ في البحر. وهذه الجداول قصيرة لان قمم الجبال قريبة من شاطىء البحر ويبلغ متوسطها حوالى العشرين كيلو متراً. وقد ذكرنا منها في بدء الكلام خمسة عشر لا ينتفع منها الاّ بنهر الكلب ونهر ابرهيم في ادارة الطواحين المتفرقة على شاطئيهما وفي ري مساحات ضيقة قريبة من مصبهما او متاخمة لضفافهما. وقد استفاد سكان ذلك السهل الاقدمون من تلك الجداول فقد جر الرومان ماء الزهراني الى صيدا في ترع نقروها في الصخر كما انهم اتخذوا نهر بيروت لشرب مدينة بيروت القديمة. وقد بقي قريباً من تلك المدينة آثار قنطرة مشيدة ذات ثلاث طبقات يعلو بعضها بعضاً ارتفاعها الكلي ٥٠ متراً وطولها ٢٤٠ متراً. وفيها ايضاً بقايا ترع اخرى قديمة قدّر تصرفها بنحو متر مكعب في الثانية. وفي وقتنا هذا تستخدم الترع الموجودة خارج المدينة دون ان يفكر احد في اصلاحها او الاحتفاظ بها فيفقد كذلك كميات وافرة من الماء يحدث منها مستنقعات تضر ضرراً بليغاً بسكان النواحي المجاورة. ويدير ماء نهر بيروت طواحين عديدة على ضفتيهِ كسائر الانهر الاخرى. وقد انتفع الاقدمون ايضاً من نهر الكلب فترى في واديهِ آثار مجارٍ قديمة تأتي بماء الجبال وهو يدير الآن الطواحين ويسقي مدينة بيروت وكذا بعض

حقول الخضر التي فيها . ورغم ذلك فانهُ يتبقى جزء من الماء يضيع سدى في البحر

وانا لنذكر هنا ظاهرة غريبة عن هذا النهر دوّنها سترابون المؤرخ اليوناني وهي انهُ في الايام الاولى للفتح الروماني كان نوتية جزيرة ارواد يجرون سفنهم في نهر العاصي المسمى لذلك العهد بنهر ليكوس حتى يصلوا بها الى احد بواغيز جبل لبنان الموصلة الى « سيله سوريا » اي سهل البقاع الحديث

ولا يغرب عن بالنا في النهاية ما حفرهُ الرومان من الترع لماء نهر ادونيس المسمى الآن بنهر ابرهيم وكانت تلك الترع توصل الماء الى مدينة جبيال اوبيلس اليونانية التي تدعى الآن جبيل وكانت مشهورة في عهد الفينيقيين بهيكل الالاهة بعلة وزوجها عموز او ادونيس كما سماهُ اليونان

ونقرأ في اقاصيص الاولين المتداولة ان صياداً سوريًا اسمهُ ادونيس التقى يوماً بالملكة بعلة التي كانت تحكم ببلس في ذلك العهد فالف الحب بين قلبيهما ولكن سعادتهما لم تدم طويلاً لسوء حظهما اذ ان خنزيراً وحشيًا قضى على الصياد ادونيس بطعنة نافذة من انيابهِ فمات بين ذراعي حبيبتهِ التي بكت عليهِ بكاء مرًّا ودفنتهُ وقد انتصر حزن بعلة على الموت اذ خرج ادونيس ثانية من القبر جزاء ما سكبتهُ من الدموع وعاد اليها اشد غراماً مما كان قبل فاجعتهِ. وكانت ببلس تحتفل كل عام بعيد ذاك الاله السوري فيحجّ اليها جم غفير من اهل لبنان ومصر واليونان

شرعت اليوم احدى الشركات السورية في الانتفاع بماء النهر لري السواحل الواقعة شمال مصبه وجنوبهِ وكذا لتوفير الماء لشرب مدينتي جبيل وعمشيت . وتريد هذه الشركة ايضاً ان تسخر الشلالين المهيبين في نهر ابرهيم لتوليد قوى تدير آلات مصانع بيروت التي لا يتجاوز بعدها عنها الثلاثين كيلو متراً فنأمل ان تتم هذه الاعمال باسرع ما يمكن

وفي قمم الجبال تغور منابع جداول الساحل عيون اخرى فاذا عني بمائها امكنها سقيا القرى ومضاعفة عدد البساتين التي يعرف اهل لبنان كيف يغرسونها بما اوتوا من حذق رغم الجهد اللازم لاعداد اراضيهم الجبلية . ونذكر من ضمن تلك الينابيع « عين العار » القريبة من بعبدات التي جر الرومان ماءها حتى دير القلعة في قناة من حجر يرى السائر آثارها على الطريق الموصل من بيت مري الى

برمّانا وكذا عيون بقليم شرق ظهور الشوير والتي يريد اهل قضاء المتن الانتفاع بمائها وكذا عيون اخرى تفوق الحصر

ويتبقى الآن مجموعة ينابيع اخرى تقع في شاطىء البحر او داخلهُ ومنها العين المجاورة للكلية الاميركية والعين التي عند رأس المدوّر ببيروت واخرى قرب جزيرة رواد تتفجر وسط البحر مستمدة ماءها من جبال النصيرية ونبع المعاملتين الذي يبعد عن شاطىء البحر ربع كيلو متر. ولو عني بامر تلك العيون الساحلية لافادت في احياء الزراعة وتيسير الحال للمقيمين في تلك الجهات

وأخيراً نذكر الشلالات الموجودة في تلك الجداول اذ يستطاع الانتفاع منها في ادارة آلات المصانع في الحاضر والمستقبل كشلال جزين الذي يبلغ ارتفاعهُ ٨٠ متراً وشلال نبع اللبن ونبع العسل وحمانا وشلالات اخرى غيرها

يستخلص مما تقدم ان أنهار السفح الغربي من جبال لبنان والنصيرية وعيونهُ يمكنها تقديم كمية من الماء لا يستهان بها لسقيا المدن والزرع وتوليد قوة كافية لادارة بعض المعامل. وتقدر مساحة لبنان المزروعة الآن بنيف واربعين الف فدان مصري في حدوده الضيقة السابقة. ولا ريب في انهُ لو ضبط جريان الماء ونظم فيهِ لامكن مضاعفة تلك المساحة وهي قليلة بالنسبة الى مساحة لبنان كلهِ فان مساحتهُ ١٢٠٠٠٠٠ فدان مصري

(٤) نهر بردى

ينبع نهر بردى من السفح الغربي للجبل الشرقي مخترقاً وادي الزبداني وعند قرية تنية يعبر المضيق الواقع بين جبل لبنان وجبل الشيخ بشلال يبلغ ارتفاعهُ ٢٠ متراً تستعمل بعض قوتهِ في انارة مدينة دمشق وتسيير الترمواي فيها. ومن تلك النقطة يبدأ سهل دمشق الشهير بحدائقهِ ومزارعهِ ولا يبلغ النهر المدينة نفسها الاَّ بعد مسيرهِ ٣٠ كيلو متراً ثم يتفرع الى ثلاثة أفرع اهمها نهر القنوات الذي يخترق دمشق فيروي بساتينها ثم يغادرها منشقاً من جديد الى فرعين اسم احدهما نهر القنوات والآخر بردى وهذا يجري ٣٢ كيلو متراً الى غرب دمشق ثم يصب في بحيرة العتابة. ويجاور هذه بحيرتان أخريان تدعى احداهما عجاة والاخرى بالة وفي هذه يصب نهر الاعوج أو فرفر المذكور في التوراة وكثير من تلك الافرع ومشتقاتها أقنية حفرت في العصور السالفة

وأشهر ما يصب في بردى نهر الفيجة او « أبانا » المذكور في الكتاب المقدس والذي يشرب منهُ اهل دمشق وقد أوصل الاقدمون ماء نبعهِ الذي يعلو عن سطح البحر ٨١٨ متراً الى مدينة تدمر بقناطر وقناة تجري تحت الارض منحوتة في الصخر وما برحت آثار تلك الاعمال بادية للعيان بين دمشق وتدمر وهذه تبعد عن نبع الفيجه نحو ٢٥٠ كيلو متراً وعرض تلك القناة ٧٥ سنتيمتراً وارتفاعها ١٨٠ سنتيمتراً وانحدارها ١٨٠ سنتيمتراً في كل كيلو متر وينسب انشاؤها الى « زينوبيا » ملكة تدمر سنة ٢٦٧ بعد الميلاد

وغوطة دمشق هو واحة كبيرة مساحتها ١٨٠٠ كيلو متر مربع أو ٤٢٠٠٠٠ فدان مصري يزرع منها الثلث فقط وحدائق تلك المدينة بل جنانها يضرب بغناها المثل ويمكن توسيع نطاقها بجلب ماء الري اليها مما يستطاع اقتصادهُ من نهر بردى اذا حسنت زرعهُ وعدا ذلك فان حاجة الزرع ليست بشديدة في الشتاء الى ماء ذلك النهر فيمكن ادخار جزء منهُ لفصل الصيف بانشاء خزان في عرض الوادي امام قرية الزبداني حيث الارض مجدبة قليلة السكان . وخزان مثل هذا يزيد الاراضي المزروعة في وادي دمشق ويحسن ري وادي الزبداني كما انهُ يزيد في قوة الشلال الموجود عند تقية فتستعمل جميعها في ادارة المصانع المحلية المختلفة في مدينة دمشق عاصمة الامويين

(٥) الفرات

يحد هذا النهر من الشرق المضلع الذي هو موضع بحثنا على مسافة ٣٠٠ كيلو متر وتجري مياههُ في وادٍ مترامي الاطراف يكاد يكون مقفراً مع انهُ فيما مضى كان زاهراً بمزروعاتهِ فهو بذلك مثل سهول حرّان والزور . ومن الصعب تقدير الاراضي التي يمكن هذا النهر ارواؤها اذ لم أعثر على رسالة تبحث في هذا الموضوع . واقدّر انهُ يمكن ان يؤخذ من ماء هذا النهر صيفاً ٣٠٠ متر مكعب في الثانية للمزروعات الصيفية . وقد قست بنفسي ذلك التصرف في مجراهُ عند قنطرة الهندية وأما فيما يختص بزراعات الفصول الاخرى فهي تبلغ نحو خمسة أمثال الزراعة الصيفية . ويصل تصرف النهر اثناء الفيضان الى ٣٠٠٠ متر مكعب في الثانية . ومن الجلي انهُ لو وضعت مشروعات لري وادي الفرات الواقع في

ارض سوريا فيجب ان يلتفت الى ما يرويهِ ذلك النهر من المناطق الجنوبية. وينبئنا التاريخ ان البابليين الذين تملكوا المجاري السفلى للفرات كانوا في حرب دائمة مع الاشوريين المتحكمين في مجاريهِ العليا لكي يتمكن كل منهما من الاستئثار بالنهر اذ كانت سعادة بابل رهن ذلك . وتشبه تلك المسئلة ما جرى من الابحاث امام اللجنة التي اجتمعت في القاهرة للحكم في توزيع ماء النيل بين مصر والسودان

فنعلم لما عساهُ ان يحدث من مثل ذلك الشقاق في المستقبل في سوريا يكفي البحث في توفير ماء الفرات بادخار الزائد منهُ في الشتاء في خزان يبنى على مجراهُ الواقع امام بيرأجك فيحتفظ بذلك بكميات غزيرة من الماء وفوق ذلك يتيسر الحصول على قوة كهربائية هائلة تدير ما يجد من المصانع في حلب وما حولها

لو فحصنا خريطة سوريا وتبعنا مجرى الفرات الطويل البالغ زهاء ١٤٠٠ كيلو متر من بيرأجك الى البصرة لوجدنا انهُ الطريق الوحيد الذي يربط خليج فارس بشمال سوريا . ولا مشاحة في ان ذلك الطريق النهري يصح من الاهمية بمكان عظيم لو اوصل ماؤهُ الى البحر الابيض بقناة تمر مثلاً بمسكنة وحلب وأنطاكية ثم تنتهي بالسويدية ويبلغ طولها حينئذٍ ٣٠٠ كيلو متر تقريباً . ويصل حلب الآن فعلاً بالفرات وادي قويق الذي تربطهُ ترعة قديمة بالسجور احد أفرع الفرات . وقد يلوح ان تلك المشروعات محض اوهام والواقع ان تحقيقها يعدُّ جرأة نادرة ولكن العجب يزول منها اذا علم انها خطرت لبعضهم منذ ثلاثين سنة فقد أوفد المسيو شوندرفر باشمهندس الطرق والمعابر في فرنسا سنة ١٨٩٠ الى ارض الجزيرة ليعيد تنظيم الري فيها ويرجع الفضل اليهِ في انشاء قنطرة هندية القديمة فكان من اول المفكرين في وصل بغداد بالبحر الابيض المتوسط حتى تكون مرفأ عليهِ كما هي على الخليج الفارسي . وفي سنة ١٩١٢ عهد الى غبريال افندي نورادنجيان الذي كان عضواً في مجلس الاعيان ثم صار وزيراً للخارجية في الاستانة بعمل درس مختصر لذلك المشروع العظيم حينما كنت أعد العدة للرحيل الى بغداد

وقد وجدت اثناء اقامتي في العراق في دفترخانة الولاية درساً اولياً يراد منهُ تيسير الملاحة ما بين مسكنة الواقعة على الفرات مواجهة حلب وما بين قنطرة

هندية وقد عثرت ايضاً على مشروع آخر يرمي الى ربط دجلة بالفرات ما بين بغداد وفلوجة. وقد حدثني ميسنر باشا المدير العام لسكة حديد بغداد بامكان تنفيذ هذا المشروع وأني لآنس في الشجاعة الكافية للقول بان تحقيق هذا المشروع في حيز المستطاع. فقناة بناما التي يبلغ طولها ٧٥ كيلو متراً علوها عشرة أعوسة لتصل المحيطين الواحد بالآخر مع اختراقها لارض تعلو عنهما نحو ١٠٠ متر فلو حذونا حذوها لوضع خطة عملية للتغلب على ما يعترض المشروع من الصعوبات في المنطقة المحصورة بين السويدية وانطاكية وحلب والفرات والتي يبلغ طولها ٢٠٠ كيلو متر. وأعلى منسوب فيها ٣٨٠ متراً فوق سطح البحر — لوجد ان الترعة التي تحفر فيها يرجح احتواؤها على ثلاثين هويساً . وللاقتصاديين الحكم في امكان تحقيق هذا المشروع من الوجهة المالية . وليس من ينكر انهُ قد يثير معارضة شديدة من أصحاب قنال السويس ولكن ليس هناك محل للمنافسة مادام كل من الترعتين مقصوراً على القيام بما يناسبهُ من الاعمال فقناة السويس صارت الآن أضيق من أن تقوم بمهمتها حتى تحدثوا بوجوب مضاعفة عرضها فعلى ذلك لا يظن ان تزاحمها تلك الترعة الحديثة العهد

يستنتج من الابحاث المتقدمة ان الري الحالي في سوريا مقصور على مساحة ضئيلة جداً من اراضيها الواسعة رغم ماء انهارها العديدة وان ما يمكن ريهُ منها هو مليونان ونصف مليون من الافدنة متفرقة في وديان العاصي والليطاني والفرات وبردى وانهر الساحل . ولكي تعود سوريا اليوم الى عهدها السالف وتزرع صيفاً وشتاء يجب ان ينتفع من ماء كل نبع فيها بدرس ما يجب اجراؤهُ من اعمال الري .ومن وجهة اخرى فقد انتهت الحرب الاخيرة ضرر اعتماد مملكة على ما تنتجهُ اخرى من القمح. فلنسعَ جهدنا اذن لنستبدل ذاك الوقود الاسود بالوقود الابيض الذي حبتنا أنهار سوريا بهِ فننظم شلالاتها أو تنشىء اخرى جديدة لنستعملها في ادارة المصانع ونشرها في جميع مراكز القطر السوري لترقية الصناعات على تباين انواعها من نسج الحرير وصنع السجاد ودبغ الجلود وعمل الصابون وعصر الزيت وفتل الحبال والنجارة والصياغة وعصر الخمور وعمل الحلوى وحفظ الاثمار وسبك المعادن الى آخر ما هنالك . ويستطاع ايضاً

استخدامها في تسيير قطارات السكك الحديدية فتقل نفقات استهلاكها ويتيسر انشاء خطوط اخرى قليلة التكاليف نظراً للانحدارات العظيمة التي يمكن اعطاؤها لها

ومن الصعب تقدير القوة التي يمكن الحصول عليها من مياه انهر سوريا. ويرى بعض المهندسين انها تزيد على ٥٠٠ ٠٠٠ حصان أبان الصيف ويحتمل صحة هذا الرقم. ولو فرض ان زاد عن الحقيقة فيستطاع سد العجز بانشاء قناطر تحدث سقطات جديدة كما هو الحاصل في الممالك الجبلية باوربا

يقدر في مصر لكل فدان مزروع رجلان فبناء على ذلك يلزم الثمانية ملايين فدان القابلة للزراعة والمحصورة في المضلع السوري الموصوف فيما تقدم (غير محتسب فيه أرض حوران) ١٦ مليون من السكان لتعميرها او على الاقل نصف ذلك العدد بفرض زرع نصفها فقط كل سنة. وينتج من ذلك انهُ يكفي المليونين ونصف مليون من الافدنة الممكن زرعها في تلك الاقاليم مثل ذلك العدد من السكان. وليس من المتعذر الحصول على ذلك العدد كلهِ او جلهِ فالاحصاءات الاخيرة لسكان لبنان في حدودهِ الطبيعية بين صور وصافيتا بلغت ٨٥٠ ٠٠٠ نسمة وليست الحاجة ماسة لمثل هذا العدد ولاسيما في الايام الاولى للاصلاح الذي يستغرق سنين عديدة. وكل ما يلزم هو الدقة في توزيع سكان ارياف سوريا على الاراضي التي ستروى من ماء الانهار والتي ستروى من ماء الامطار فيقدم للاولى العدد اللازم لزرعها وما تبقى يرسل للاخيرة. ومن المؤكد انهُ مع مضي الزمن واستتباب الامن والطمأنينة يكثر عدد السكان فيمكن في المستقبل استغلال الثمانية ملايين فدان كلها سنوياً بسهولة يقرب عن بالنا ان مصر لم يكن تعدادها سنة ١٨٣٥ سوى مليونين من الانفس تكاثروا الآن حتى بلغوا ١٣ مليون نسمة. فلنتخذ لنا امثولة حسنة من هذا القطر السعيد الفريد في تقدمهِ الزراعي والذي ندين لهُ بكثير مما لنا

ادموند بشاره